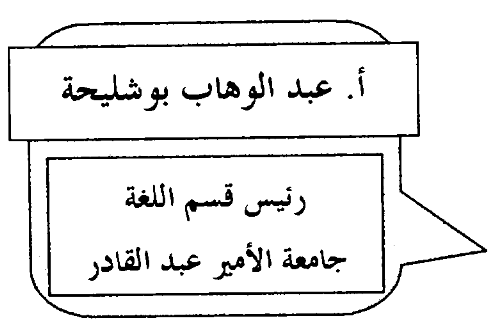
الوسيط الاستشراقي- طه حسين نموذجا-



قدر للعالم العربي أن يفتح عينيه في العصر الحديث على حضارة عربية متقدمة ف مجالات الحياة، نقلتها إليه بواعث كثيرة، قادها رجال فكر وسياسة إلى بلاد لا تزال تغط في التقاليد، وتركن قدرية لا متناهية في كل أطوار حياتها. و مع ذلك فقد نظر الغرب نظرة المنبهر أمام منجزاته الفكرية والتقنية، ودفعهم دافع النهوض والتطور بركاب حضارته، فتطلع لعرب إلى الغرب، وطلبوا منه العلوم والفنون والآداب والفلسفات ففرض نفسه عليهم، وبذلك بدأ الفكر الغربي في التسرب إلى الوطن العربي. ومنه هنا وقبله بدأ الاستشراق، وظهر المستشرقون، الذين كرسوا حياتهم لخدمة العلم، فدرسوا، وحققوا، وشرحوا الغامض من ثروة العرب العلمية والفكرية والفلسفية. حتى شاعر بيننا أن المستشرق هو من غير علماء العرب والمسلمين وقد تصدى لدراسة علوم العرب وحضارتهم، ومعتقداتهم وتقاليد شعوبهم وعاداتها سواء كانت هذه الشعوب تقطن شرق البحر المتوسط والجانب الجنوبي منه، وسواء كانت لغة هذه الشعوب العربية أو غير العربية كالتركية والفارسية والأردية من اللغات التي تتحدث بها شعوب المسلمين، وكان لها فيها أثار علمية أخضعها المستشرق- الإفرنجي- للدراسة والتحليل[1].

---

[1] علي بن إبراهيم النحلة: الاستشراق في الأدبيات العربية، مركز فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 1993، ص17.

تسمح المقدمة السابقة بالاقتراب من تحديد مفهوم الوسيط الاستشراقي، والكشف عن الوجه المغيب في الدراسات العربية التي تناولت بالتحليل والنقد الدراسات الاستشراقية لتي قدمها المستشرقون عن التراث العربي الإسلامي. فالنقد العربي للاستشراق تغور جذوره لتتصل بالبدايات الأولى للصراع العربي الغربي، وربما كان جذل الأفغاني ومحمد عبده مع إرنست رينان أول فصول هذا النوع من النقد وقد ظل منذ الحين دينيا وسياسيا بالغ العنف والتشكك. فإذا كان الغرب قد غزا العالم العربي عسكريا، فإن الاستشراق في نظر العرب رافق هذا الغزو بل تقدمه ومهّد الطريق على الجبهة الثقافية والفكرية، فهو عندما كان مسيحيا أراد ضرب الإسلام لنشر المسيحية بالقوة والتبشير. وهو عندما صار علمانيا أراد تخريب عقيدة المسلمين لتضعف مقاومتهم ويسهل استغلالهم. وأخيرا أن هذه الرؤية للاستشراق لا تقدره دون سائر ظواهر الغرب، بل ترى فيه فصلا من مؤامرة كبرى على الإسلام والمسلمين[1].

والجدير بالملاحظة أن هناك إحساسا مستديما لدى الدارسين العرب بأن المستشرق لا يمكن أن يكون مستقلا في بحوثه وتوجيهاته، فهو تابع بالضرورة لجهة رسمية معادية للإسلام والمسلمين لعرب بالغرب، ويظهر ذلك في دراسات محمد محمد حسين، أنور حسين أنور الجندي الغزالي. ثم هناك أخيرا، اقتناع راسخ وجازم بان الصراع بين الثقافتين الغربية والعربية أبدي ليس للمشتركات فيه أفق ويبدو ذلك في كتابات المودودي، سيد قطب، محمد قطب.[2]

ويظل الوجه الآخر للإشكالية محوكا بالغموض، فالنقاد العرب جميعا يرون أنفسهم في مواجهة زحف حضاري وثقافي جارف لا يستطيعون إزاءه غير الوقوف موقف الدفاع المتشنج. ويزداد هذا الشعور النفسي للمسألة تعقيدا إذا أخذنا في الحسبان تقدير هؤلاء الدارسين للكثير من دراسات المستشرقين واستشهادهم بها، حتى إذا كتب هؤلاء في قضية ما متصلة بالإسلام في

---

[1] رضوان السيّد: ثقافة الاستشراق ومصادره وعلاقات الشرق بالغرب، مجلة الفكر العربي لعدد 31 مارس 1983، ص14-15.
[2] المرجع نفسه، ص16.

الشرق، أو في بعض المجتمعات العربية الإسلامية اختفى التقدير الشفوي. وعادت الموقف والمشاعر للبروز من جديد. عن الاستشراق ن منظور الكثرة الحائرة من كتاب العرب المحدثين والمعاصرين هو الوجه الأكاديمي أو المدون للسياسة الاستعمارية في العالم العربي[1].

مما سبق يتضح للدارس الموضوعي أن عقدة الاستشراق التي تمت وترعرعت في رحم الرفض العربي الإسلامي منذ البدايات الأولى للمدّ الاستشراقي تكشف لنا أن روح الحوار العلمي الديني المتسامح، كان يفترض له أن يؤسس لمنظومة فكرية دينية تذيب الجليد وتقرب بينهما. ورغم جهود التواصل التي قام بها بعضهم مثل لويس ماسينيون الذي بنى "موقفه تجاه الإسلام انطلاقا من فكرة الاتصال والارتباط الديني بين المسيحيين و المسلمين. وقد رأى أن في هذا الارتباط بالذات أفاقا واقعية عريضة أمام الفهم المتبادل بين اتباع الديانتين الكونيتين والتقريب بين مصالح الأوروبيين والمسلمين في مجال الاتصال والحوار الديني[2]". فإن الحوار المسيحي الإسلامي ما يزال في بدايته، وما يزال يعاني من تأزم علاقات الشرق والغرب. كما لا يزال يعاني من إحساس المسلمين بأنهم الطرف الأضعف في السياسة والثقافة. إنهم لا يستطيعون أن يقفوا على قدم المساواة مع محاوريهم (أو هكذا يحسّون) ويخشون من ناحية ثانية أن يضعهم هؤلاء في جيوبهم.[3]

إن الإشكالية التي واجهت الدارسين العرب للاستشراق تتمثل في جانب هو أن الفكرة ذاتها –الاستشراق– لم تكن واضحة في أذهانهم، وفاتهم أن الاستشراق لون ثقافي، وأن من "أولى وظائف الثقافة وأهمها أن تعيد بناء الإنسان، وتصوغ أو تعيد صياغة تصوره للعالم، وتصقل نفسه وتسدد سلوكه ( ) ثقافة الموقف والتغيير نحو الأجمل، لا ثقافة الثبات والنكوص[4]"

---

[1] المرجع نفسه، ص16–17.
[2] أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ترجمة خلف محمد الجراد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت نوفمبر 1996، ص121.
[3] الفكر العربي، العدد 31، ص22.
[4] وهب احمد روميّة: شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، مارس 1996، ص14.

إن الاستشراق بوصفه ثقافة علمية يفضي بنا إلى طرح إشكالية قراءة النص، قراءة التراث من قبل المستشرقين الذين أسهموا بطريقة أو بأخرى في فك عوالمه والحكم عليه وله، إن قراءة المستشرقين تصدر عن تصور شامل للحياة، وتتوصل بأدوات نقدية ومعرفية لم تكن ميسرة حتى وقت قريب في المؤسسات العلمية العربية منذ مطلع عصر النهضة.

وتأسيسا عما سبق دفعت الحاجة الإنسان العربي إلى الآخر دفعا، وإلى إعادة تكوين حقله المعرفي والفلسفي ليحصل على مجال جديد، يدرك فيه القضايا والذات يقوم على العقل والفكر المنهجي.

في الوساطة الأدبية:

يطرح موضوع الوسيط الأدبي مسألة اثر أدب أمة ما في أدب أخرى. والدارس لهذا الموضوع يقتضي أن يلحظ الظروف التاريخية التي ربطت بين الأمتين، ثم الوسيط الذي ساعد على هذا النقل[1]. بتعبير آخر قد يقيض لأدب من الآداب أن يظهر أديب أو ناقد أجنبي عنه يعرف أمته بأدب أمة أخرى، ويكون داعية لأدبها، وفي حالات كثيرة تساعد ظروف كالهجرة، والرحلات، ذلك الداعية الوسيط القيام برسالته في تعريف أبناء أمته بالأدب الذي يدعو إليه[2].

ونعتقد أن إشكالية الوساطة الاستشراقية تأخذ حظها في الدراسة انطلاقا من حقل الدراسات المقارنة، لترسم منحى فكريا، وتوجها جديدا في الدراسات العربية، لتكشف عن توجه مغاير تماما في رسم معالم الدراسات الأدبية والفكرية منذ نهاية القرن التاسع عشر مع رفاعة الطهطاوي، والربع الأول من القرن العشرين مع طه حسين الذي أسس لها بعد عودته من فرنسا. فقد

[1] داود سلوم: محمد منظور والوساطة الفكرية بين الشرق والغرب، قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية، بغداد 1983، ص7.

[2] محمد عيسى هلال: الأدب المقارن، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط5، ص130.

كانت حلقة -طه حسين- بارزة في هذه الوساطة الاستشراقية بما أثارته في مجال الدراسات الأدبية والنقدية من إشكالات نقدية ومنهجية. دكت نار الثورة على الفكر العربي وقتئذ ومرجعيته التراثية.

في الوساطة الاستشراقية:

- **الوسيط الاستشراقي شخص من أمته يعرفها بأدب وفنون وفلسفات أمة أخرى. ويكون داعيا ومشجعا وحاثا أبناء أمته للأخذ والاستفادة منها، وكثيرا ما تساعد عوامل موضوعية على حمل هذه الرسالة والمضي بها كالدراسة والرحلات والهجرة.**
- **يكشف لوسيط الاستشراقي-من خلال عملية الوساطة- عن العمق الفكري والفلسفي والأدبي للآخر.**
- **يقرّ بأن تغيير -الأنا- يستلزم الوعي بالآخر، وبالتالي فهو حتمي وضروري، طالما أن أمته لا تنتج الفكر والمعرفة.**
- **الوسيط الاستشراقي يرى -الآخر- رؤية ومنهجا، وبهما فقط يكتشف ذاته ويجددها، ويعيد قراءة تراثه بنظرة جديدة. يقول أدونيس في محاضرة ألقاها في الكوليج دوفرافس (college de france) في باريس سنة 1984. "احب هنا أن اعترف بأنني كنت بين من لأخذوا بثقافة الغرب، غير أني كنت كذلك، بين الأوائل الذين ما لبثوا أن تجاوزوا ذلك، وقد تسلحوا بوعي ومفهومات تمكنهم من أن يعيدوا قراءة موروثهم بنظرة جديدة، وان يحققوا استقلالهم الثقافي. وفي هذا الإطار أحب أن أعترف أيضا أنني لم أتعرف على الحداثة الشعرية العربية من داخل! النظام الثقافي العربي السائد وأجهزته المعرفية، فقراءة - بودلير- هي التي غيرت معرفتي بابي نواس، وكشفت لي عن شعريته وحداثته. وقراءة - مالارميه- هي التي أوضحت لي أسرار اللغة الشعرية وأبعادها الحديثة عند أبي تمام- رامبو ونرفال- وبيرتون- هي التي قادتني إلى اكتشاف التجربة الصوفية بفرادتها وبهائها، وقراءة النقد الفرنسي الحديث هي التي دلتني**

على حداثة النظر النقدي عند الجرجاني، خصوصا في كل ما يتعلق بالشعرية وخاصيتها اللغوية التعبيرية.[1]

• يتباين مصطلح–الوسيط الاستشراقي– عن –الوسيط الأدبي– فالوساطة الأدبية مرهونة بالدوافع الموضوعية التي وفرتها لتنتفي مع الشخص الوسيط أو ربما الجيل الأدبي. أما الوساطة الاستشراقية فآلياتها وأدواتها عند الآخر. وتعني أساسا بخلق الوعي القادر على نقد الواقع الثقافي من أجل حل تناقضاته الفكرية والمعرفية، وهي في عمقها تتجاوز الشخص وحتى الجيل لترتبط بالسيرورة التاريخية والحضارية للأمة والمجتمع.

في ضوء هذه الخلفية تأخذ إشكالية الوساطة الاستشراقية ألوان سياقها في الفعل الثقافي، والثقافة كما يقول جاك بيرك "ليست سوى مسيرة مجتمع يبحث عن معنى وعن تعبير" ثم يضيف "عندئذ تصبح حياة الكون أمام نفسها، معينة الإرادة التي تبني والعقل الذي ينقد، والجهد الذي يستعيد قواعده" ويتابع جاك بيرك "تلك هي مسيرة البحث عن التراث، وعن الكون في كل مجتمعات العالم[2]"

إن ما يلفت النظر في هذا المقام أن الوساطة الاستشراقية في العالم العربي، بدأت مسيرتها مع البدايات الأولى للنهضة العربية، باحثة عن معنى لوجودها، وعن أساليب تعبير تعكس أصالتها ومعاصرتها، وفي كل الأحوال فإن العالم العربي مهزوم "وثقافته مأزومة (...) ومزاجه حاد جريح، قوامه الإحساس العميق بالفجيعة والمرارة والحسرة.[3]" ولذلك يمكن القول "إن إرادة المهزوم في الاندماج في التاريخ الكوني، أي مجابهة التاريخ العالمي المسيطر، تفرض عليه العمل لنقل مجتمعه من زمنه التاريخي الزائف إلى زمن تاريخي حقيقي تصوغه الإرادات الطليقة

---

[1] حسام الخطيب (أي أفق للثقافة العربية وأدها في عصر الاتصال والعولمة) مجلة عالم الفكر ، المجلد28، العدد2، أكتوبر–ديسمبر 1999، ص244–245.

[2] مجلة اليوم السابع، العدد 301، 1999، ص 64.

[3] وهب أحمد رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، ص 13.

المتنوعة والمتعددة، وتخلقه السيرورات الاجتماعية التي تعيد صياغة البشر والأفكار والقيم. إن ما يصنع التاريخ بالمعنى النظري الدقيق كلمة هي التحولات اللامرئية والآثار اللامتوقعة والنتائج غر المسبوقة، من وجهة نظر المتمرد الطليق أو المهزوم المتمرد على كل التاريخ التي أعطت هزيمته. وفي كل تصور كهذا، لا يبقى لمفهوم –التراث– الأصل معنى كبيرا طالما أن المتمرد على حاضر التاريخ يعيد صياغة كل ما يرف، من هويته في جملة العلاقات التي جعلته يخسر حاضره، ويحضر سادته عليه. ولذلك يبدو أن تصنيم التراث لا يقدم شيء كثيرا، طالما أن الراهن هو بدء السؤال والإجابة[1]"

يحيل الطرح السابق أن طه حسين بوصفه وسيطا استشراقيا انتهى إلى التراث العربي ليس عنده ما يقدمه من زاد مبتكر يمكن أن يشفع له ولوج باب الحداثة. ولرسم معالم وساطته حريّ بنا أن نرصد نشأة وسلطته الاستشراقية وتطورها.

المرحلة الأولى:

1) بدأ فكر طه حسين في التبلور من خلال ما ينته لواقع التخلف الذي يعيشه الأزهر في تلقين العلوم الشرعية والأدبية ومناهجه التقليدية العقيمة التي لا تضيف شيئا إلى دارس الأدب سوى الاجترار والتكرار.

2) اتصاله بالجامعة الأهلية التي فتحت عقله على ميادين علمية لم يكن يتصورها، فقد أقبل أساتذة جدد ملكوا عليه أمره، واستأثروا بهواه. فهذا الأستاذ – كلرلو نيللينو– المستشرق الإيطالي يدرس باللغة العربية تاريخ الأدب والشعر الأموي، والأستاذ – سنتلانا – يدرس بالعربية تاريخ الفلسفة الإسلامية، والأستاذ – ميلون– يدرس اللغة العربية كذلك تاريخ الشرق القديم ويتحدث إلى الطلاب عن أمور لم يعرفها شيوخ وطلبة الأزهر من قبل، والأستاذ الألماني –

[1] فيصل دراج، النظام الدولي الجديد وإيديولوجيا نهاية التاريخ، مجلة الطريق، العدد 4، تموز آب/يوليو أغسطس 1995، ص14-15.

ليتمان – يتحدث إلى الطلاب عن اللغات السامية والمقارنة بينها وبين اللغة العربية[1]. تتجلى الوساطة في مرحلتها الأولى بوصفها رفضا لمؤسسة الأزهر، وثورة على فكره ومنهجه أنها مؤسسة أودى بها القمع المتوارث إلى الركود اليانس، والاستقرار الزائف. وهي بالتالي لا يمكن أن تنتج نظرية ولا تبدع فكرا يؤسس عناصر البناء الثقافي والحضاري. عن اتساع دائرة العلم عند طه حسين مكنه من تجاوز مؤسسة الأزهر ومرجعيتها، إلى مجالات عديدة كاللغات السامية، التاريخ، الفلسفة، انطلاقا من منظور علمي أكاديمي.

المرحلة الثانية:

سافر طه حسين إلى فرنسا، ودرس بأكبر جامعاتها – السوربون – وهناك تتلمذ على كبار الأساتذة منهم – جوستاف جلوتز – أستاذ التاريخ اليوانيني، والأستاذ – شارل ديهل– أستاذ تاريخ القرون الوسطى والأستاذ –شارل سينويوبوس– أستاذ التاريخ الحديث، و –ألفونس أولار– أستاذ تاريخ الثورة الفرنسية ثم –جوستاف لانسون– في تاريخ دراسة الآداب [2]. لقد وجد طه حسين في لسوربون مناخا فكريا لم يعهده لا في مصر فقط، بل حتى في كامل الوطن العربي وقتئذ. فقد تشبع بالفكر العلمي، وبالروح التاريخية في دراسة الأدب العربي، وبديهي أن يتعلم حرية الرأي، والمجاهرة بأكثر الآراء جرأة، وتقديس العقب، ونبذ القديم وحب الجديد[3]

ملامح الوساطة الاستشراقية في فكر طه حسين:

اهتم طه حسين بالفكر الغربي ومنهج البحث عند الغربيين وفي مقدمة كتابه –في الشعر الجاهلي ما يكفي إلى التدليل على رغبته في إشاعة المنهج التاريخي معتمدا على اعتراضاته على طريقة التدريس والبحث عند علماء الأزهر، والمؤسسات العلمية في العالم العربي برمته. والدارس لمقدمة كتابه في الشعر الجاهلي يتبين الخطوات العلمية والمنهجية للمنهج التاريخي.

[1] عبد المجيد حنون: اللانسونية وأثرها في رواد النقد العربي الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996، ص152–153.

[2] المرجع نفسه، ص156–157.

[3] المرجع نفسه، ص 158.

1) **الشك الديكارتي:** يقول "وأول شيء أفاجئك به في هذا الحديث هو أني شككت في قيمة الشعر الجاهلي، وألححت في الشك، أو قل ألح على الشك)[1]

2) **يعرض إلى مسألة الموضوعية بوصفها أساس البحث العلمي يقول:** "إن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد من كل شيء كان يعلمه من قبل، أن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما[2]".

3) **الروح العلمية:** يرى طه حسين في هذا الشان أنه "يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها. وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به. وأن ننسى ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين، يجب أن لا نتقيد بشيء. ولا ندعن لشيء إلا مناهج ابحث العلمي الصحيح. وذلك أنا إذا لم يلائم هذه القومية وهذا الدين وهل فعل القدماء غير هذا ؟ وهل أفسد علم القدماء شيء غير هذا ؟ كان القدماء عرب يتعصبون للعرب، أو كانوا عجما يتعصبون على العرب فلم يبرأ علمهم من الفساد[3]

4) **وضع النص في سياقه التاريخي:** وذلك للكشف عن أهم العوامل والمؤثرات التي أنتج في ضوئها النص، يقول: "يجب أن أحدثك عن الحياة السياسية الداخلية للامة العربية بعد ظهور الإسلام ووقوف حركة الفتح، وما بين هذه الحياة وبين الشعر من صلة. ويجب أن أحدثك عن حال أولئك الناس الذين غلبوا على أمرهم بعد الفتح في بلاد فارس وفي الشام والجزيرة والعراق ومصر وما بين هذه الحال وبين لغة العرب وأدبهم من صلة ثم يجب أن نحدثك عن اليهود في بلاد العرب قبل الإسلام وبعده وما بين اليهود هؤلاء وبين الأدب العربي من صلة. ويجب أن نحدثك بعد هذا عن المسيحية وما كان لها من الانتشار في بلاد العرب قبل الإسلام وما أحدثت من تأثير في حياة العرب العقلية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية و بين هذا كله وبين

---

[1] طه حسين في الشعر الجاهلي، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط 1، 1926، ص7.
[2] المصدر نفسه، ص 158.
[3] المصدر نفسه، ص 12.

الأدب العربي ولشعر العربي من صلة ثم يجب أن أحدثك عن مؤثرات سياسية خارجية عملت في حياة العرب قبل الإسلام وكان لها اثر قوي جدا في الشعر العربي الجاهلي وفي الشعر العربي الذي انتحل وأضيف إلى الجاهلين[1]"

لقد كشفت الخطوات العلمية للمنهج التاريخي-اللانسونية- كيف أن التراث الشعري لعربي يختلف موقعه داخل الفكر العربي الحديث، تبعا لاختلاف المنطقات الفكرية والإيديولوجية للمفكرين والدارسين والنقاد العرب. فالفكر التراثي يتخذ موقعا سكونيا منعزلا عن حركة التاريخ في قراءته للتراث الشعري العربي. أي تماثل الماضي والحاضر وكل ما سيأتي من الأزمان تماثلا مطلقا من حيث العلاقة بالتراث العربي الإسلامي. وانطلاقا من كونه تراثا لا يقبل التغيير والتبديل فهو. وهو ثابت أن الفكر التراثي بهذه النظرة ينزع بشكل صارم صفة التاريخية عن التراث العربي الإسلامي. ويعزله عن جملة العلاقات والشروط الاجتماعية التاريخية التي ارتبط بها نشأة ونموا وتطورا خلال عصور ازدهاره[2]. في حين أن طه حسين الوسيط الاستشراقي كان يفترض بالعقل العربي أن يتوقف بكل عقلانية عند تراثه "ن وجهة نظر عقلانية منهجية – ترى- أن الدخول في أي بحث يتعلق بإحدى مسائل التراث العربي يستوجب في البدء تحديد مفهوم التراث. ذلك انطلاقا من أننا ننظر إلى التراث العربي كجزء عضوي وموضوعي من تراث الفكر البشري ككل وننظر إلى تاريخيته الخاصة كفصل من التاريخية العامة لتراث كل البشرية أي أن الخصوصية التي لا جدال في أن -التراث العربي- يتمتع بها حقا لا تعني أن يتمتع بها كخصوصية مطلقة تضعه خارج حدود المفهوم العام لتراث الفكر البشري"[3]

والدلالة الأساسية لهذا كله، أن المناهج المعاصرة -المنهج لنفسي- المنهج الاجتماعي، المنهج البنيوي متجانسة يمكن عزلها وفصلها عما عداها، ومن ثم القبض عليها نقية من كل الشوائب

---

1 المصدر نفسه، ص 12.
2 حسين مروة، مكانة التراث الإسلامي في الفكر المعاصر، مجلة الطريق، العدد 1، أبريل 1982، ص90-96.
3 المرجع نفسه، ص 88.

بحيث يمكن وضعها في حقل مستقل. والنظر إليها منفصلة عن سواها. وبحيث يمكن تجميدها وقطع ما بينها وبين غيرها من الحقائق من صلات وتفاعلات من شأنها أن تحدث تغييرا في كل الحقائق الداخلة في هذا التفاعل. وهذا معناه أن مواضيع التراث العربي الإسلامي لم تعد معطى بسيطا بل هي قد تحولت بين أيدي الدارسين والنقاد المحدثين والمعاصرين إلى شبكة من الموضوعات المتداخلة مما يجعل الحديث عن هوية ثابتة وساكنة لها أمر لا معنى له.

فحقيقة التراث مفهوم شديد التعقيد وعرضة للتغيير بسبب كونه نتاجا لتفاعل بين قطبين كليهما ذي هوية نسبية. الموضوع بسبب التبدل المستمر والتغيير الذي لا ينقطع للتخوم الفاصلة والواصلة في ما بين العلوم المختلفة. والذات بسبب ما تحقق من وعي مستمر بذاتها نتيجة لما يتحقق لها من وعي لحقائق موضوعاتها من ناحية. ومن ناحية أخرى نتيجة لطموحها إلى جعل القوانين وعيها بذاتها هي القوانين التي تتحكم بالواقع نفسه على الرغم من كون معطيات العلم والفكر العلمي في نهاية الأمر تتسم بأنها سماء ومحايدة من الناحية الإيديولوجية على حد سواء[1].

الوساطة الاستشراقية والحداثة:

إن الوساطة الاستشراقية مع طه حسين طرحت ضرورة خلق وعي عربي عقلاني علمي قادر على مجابهة تحديات الواقع الراهن أي قادر على نقد التراث العربي الإسلامي. وشرط ذلك أن تمس الوعي نار العقلانية العلمية الهادرة أي أن يعاني الوعي العربي الثورة العلمية والفلسفية الحديثة في بنيته الداخلية وأن تحدث العقلانية العلمية زلزالا في الوعي وتشكله على أساس محوريتها. ويعني ذلك أن تمر الانتلجانسيا والنقاد العرب في سلسلة من المعاناة المتعددة الجوانب. فيتعرض وعيها للتحدي الحضاري الكبير الذي تفرضه العقلانية العلمية على الوعي ما قبل العلمي بما يزلزل أركان هذا الوعي ويفجره من الداخل صوب أشكال أرقى من الإدراك. أما العقلانية العلمية فهي الأسس والأرضيات الفكرية والفلسفية والقيمية التي تفترضها المنهجية

---

[1] يوسف سلامة: الدولة والحداثة في فكر طه حسين، مجلة قضايا وشهادات، صيف 1990، ص 174.

العلمية وترتكز إليها ومنطوياتها الثقافية والحضارية. وهي ثورة في جوهرها ترفض في بنيتها الداخلية المصالحة مع الماضي -أي مع الأمر الواقع. كما رسمه السلف. إنها ثورة دائمة. نقد متواصل. إنها صورة الجدل في تجدده الدائم والمستمر.

أن تمثلها وهضمها ليس بالمسألة السهلة. وإنما ينطوي على بركان مدمر في الوعي وعلى خلق وعي جديد دينامي متحرك بصورة متواصلة يتم ربط حلقاتها بين الأجيال[1].

ولذلك فإن شروع طه حسين في الوساطة الاستشراقية يستند أساسا في خطوته الأولى على ضرورة تقويض القديم. وبزوغ رؤية جديدة متناقضة في خطوطها الرئيسية للفكرة التي ما يزال هذا القديم يتخذ مبررا لوجوده. والتعبير الأرقى عن هذه الفكرة المناقضة يتخذ صورة رؤية منهجية أو مجموعة من الخطوات تؤلف منهجا يمكن استعماله في تفكيك القديم من ناحية والتمهيد لبزوغ الرؤية الجديدة التي سينهض عليها المنظور الجديد للتراث من ناحية ثانية.

فالشك الديكارتي بوصفه جوهرا في منهج طه حسين. يتخذ صورة ارتياب. أو صورة موقف نقدي تجاه الماضي. وصورة حركة تنويرية من حيث علاقته بالحاضر على اعتبار أن من شأن المنهج التاريخي تجديد العقل وتحريره وليس الوقوف عند تحديث وسائل البحث وأدواته فقط. ولعل أهم نقطة في منهجه الذي يمكن تعميمه أيضا على شتى جوانب التراث العربي الإسلامي هي العودة إلى الإنسان والاعتراف بأن كل شيء في هذا العالم من خلق فعاليته والإقرار بأن الألوان المختلفة لهذه الفعالية لا سبيل إلى فهمها إلا بالمناهج الإنسانية التي تتخذ من إنسان نقطة ابتداء ونقطة انتهاء[2].

وهذا ما يسمح بالقول بأن الوساطة الاستشراقية لطه حسين ما تزال إلى يومنا هذا أهم إسهام على المستوى المنهجي والعقلي قدمها الفكر العربي الحديث في مواجهة الفكر السلفي التقليدي بل

---

[1] هشام عصيب: العقل والثورة، جدل التحديث، مجلة الطريق، العدد 5، سبتمبر-أكتوبر 1995، ص11.
[2] يوسف سلامة: الدولة والحداثة في فكر طه حسين، قضايا وشهادات، ص178.

وما تزال لهذه الرؤية هي الطريق التي لن يبلغ المجتمع العربي أهدافه من التحديث والعقلانية إلا إذا نجح في تحقيقها في قلب الحياة العربية الإسلامية على اختلاف مستوياتها.

وإذا كانت القاعدة الأساسية التي تنهض عليها الوساطة الاستشراقية عند طه حسين للحداثة في المنهج ، فإن العقلانية هي ماهية هذا المنهج من ناحية، وهي من ناحية أخرى الروح أو النسغ الحي الذي يمنح الحداثة مضمونها وعلى ذلك فبقدر ما كان التراث بالنسبة لطه حسين مصدرا للعقلانية، كانت الحداثة تعني لديه بحثا مستمرا عن هذه العقلانية. أو على الأصح محاولة دائبة لفرض العقلانية عليه. وصولا إلى تحديث أساليب الحياة الأدبية والفكرية داخل المؤسسات العلمية والجامعات العربية.

لقد كانت دعوة طه حسين إلى المنهج التاريخي بذاته تعني بالنسبة له الأسلوب المناسب لتحرير جيله ولهذا كان يرى أن جيله المعاصر لا يمكنه أن ينتج تاريخا للآداب العربية بمعناها العلمي ما لم يحرر نفسه كامل الحرية من كل الأحكام المسبقة في نظرته إلى الغرب ومؤسساته العلمية والأكاديمية.

لقد قام المستشرقون بجمع المخطوطات العربية وفهرستها، وحققوا ما رأوه ضروريا لدراستهم وأبحاثهم، ونشروها نشرا علميا، وطبعوا في بلادهم العدد الكبير من المؤلفات العربية في التاريخ والآداب والفلسفة وعلوم الحديث والفقه. وترجموا إلى اللغات الغربية عددا كبيرا من المؤلفات العربية ووضعوا المعاجم المخطط لها بطرق علمية. إلى جانب ذلك فقد درس وتعلم على أيدي المستشرقين عشرات العلماء من العرب والمسلمين، فحملوا علومهم ومناهجهم إلى أوطانهم وأثروا في ثقافتها ومناهجها وأساليب تفكيرها، وبذلك يعد الكثير من هؤلاء العلماء والأساتذة فيما بعد بحق وسطاء للاستشراق والمستشرقين الذين لم يتعاملوا مباشرة مع التراث العربي الإسلامي. وإنما تمت دراسته من خلال مناهجهم وبأقلام عربية إسلامية أطلقنا عليهم وسطاء الاستشراق أو الوسيط الاستشراقي.